الفصل الخامس والعشرون

اليهـــود

١٧١٥ — ١٧٨٩

كفاح الحياة

قال روسو :

أن اليهود يقدمون لنا مشهداً عجيباً . فقد ماتت قوانين صولون، ونوما، وليكورجوس ؛ أما شرائع موسى ، الأقدم بكثير ، فما زالت حية . وقد بادت أثينا ، واسبرطة ، وروما ، ولم تترك خلفاً على الأرض ، أما صهيون التي دمرت فلم تفقد بنيها ؛ فقد احتفظوا بكيانهم ، وهم يتكاثرون ، وينتشرون في أرجاء العالم . . وهم يخالطون كل الشعوب دون أن يذوبوا فيها[1] ؛ وليس لهم حكام ، ومع ذلك فهم دائماً شعب» .

وربما كان بقاء ناموس راجعاً لا لحكمته الأصلية بقدر جدواه في حفظ النظام والاستقرار بين جماعات تعيش في خطر وسط عقائد معادية وشرائع أجنبية . ففي الشتات كان على الكنيس (المجمع) أن يقوم بما تقوم به الكنيسة والحكومة ، وربط الحاخامات بين أفراد شعبهم في وحدة متماسكة خلال جميع التقلبات والغير بإعطائهم بركة إيمان ديني فخور لناموس نظم كل منحى من مناحي الحياة اليهودية وأصبحت الأسفار الموسوية الخمسة الدستور — وأصبح التمود المحكمة العليا — لدولة غير منظورة .

وفقد العداء لليهودية بعض قواعده الدينية باضمحلال الاعتقادات السنية . وقد عرف المسيحيون ممن ألموا بطرف من التاريخ أن كل شعب تقريباً من الشعوب المسيحية ، في فترة أو أخرى ، اضطهد المهرطقين بالقتل

الجماعى جيلا بعد جيل أو دواوين التفتيش أو المذابح المنظمة . وعرف فولتير هذا[٢]، وندد المرة بعد المرة باضطهاد المسيحيين لليهود، وأثنى على ما رآه فى اليهود من «أسلوب فى الحياة رزين منظم، ومن زهد، وكد» وأدرك أن اليهود الأوربيين أقبلوا على التجارة لأن حرمانهم من تملك الأرض «أعجزهم عن التوطن بصفة دائمة — أى مأمونة — فى أى بلد» [٣] . ومع ذلك فقد انقلب فولتير عدواً لليهود عداوة لا هوادة فيها . ذلك أنه تورط فى معاملات غير موفقة مع رجال المال اليهود . فعند رحيله إلى انجلترا حمل معه صكوكاً على المصرف اللندنى «مدينا» ، الذى أفلس أثناء ذلك وهو مدين لفولتير بعشرين ألف فرنك [٤] . وفى برلين كلف ابراهام هيرش — كما أسلفنا — بشراء سندات هبطت قيمتها فى سكسونيا ، بقصد استيرادها (بطريقة غير قانونية كما حذره هيرش) إلى بروسيا ليسترد قيمتها هناك بربح يبلغ خمسة وستين فى المائة [٥] . وتشاجر الفيلسوف ورجل المال ، واحتكما إلى القضاء ، وانتهيا بالكراهية المتبادلة . وفى مقال فولتير عن «الأعراف» أطلق لحقده العنان فوصف العبرانيين القدامى بأنهم «أمة حقيرة ، وشعب من اللصوص ، فظيع ، رجس ، ناموسه ناموس المتوحشين ، وتاريخه نسيج من الجرائم ضد الإنسانية» .[٦] واعترض قسيس كاثوليكى بأن هذا اتهام وحشى إلى حد مضحك [٧] . ونشر يهودى برتغالى عالم يدعى إسحاق بنتو فى ١٧٦٢ «تأملات» فيها نقد للفقرات المعادية لليهود والواردة فى مقال بعنوان «اليهود» فى القاموس الفلسفى ؛ واعترف فولتير بأنه «أخطأ فى وصم أمة بأسرها برذائل أفراد »، ووعد بحذف الفقرات المهينة فى الطبعات القادمة ؛ ولكنه غفل عن الوفاء بوعده[٨] . وكان موقف الكتاب الفرنسيين عموماً ضد فولتير فى هذا الأمر [٩] . وتكلم روسو على اليهود بتعاطف مشرب بالفهم[١٠] .

ولم يكن لليهود فى فرنسا حقوق مدنية قبل الثورة ، ولكنهم أنشأوا جماعات ناجحة وخرجوا زعماء ذوى نفوذ ، اشترى أحدهم اقطاعية اشتملت على أميان ؛ واستعمل حقه الإقطاعى فى تعيين قساوسة الكتدرائية ، فاحتج الأسقف ، ولكن برلمان باريس أيد الإقطاعى اليهودى (١٧٨٧) واعترفت الحكومة الفرنسية شاكرة بمساعدة الماليين اليهود لها فى حروب الوراثة

الأسبانية والبولندية ، ولعب اليهود دوراً كبيراً فى إحياء شركة الهند الشرقية بعد انهيار مغامرة « لو » فى ١٧٢٠ (١١) . وكان يهود بوردو ذوى ثراء عريض ؛ واشتهر تجارهم ومصرفيوهم بنزاهتهم وجمودهم ؛ ولكنهم اعتزوا بأصلهم الصفاردى ، ونجحوا فى اقصاء جميع اليهود الاشكنازيين عن بوردو .

ولم يكن فى أسبانية القرن الثامن عشر يهود سافرون . ففى مطالع حكم البوربون الأسبان استغلت جماعات صغيرة منهم استنارة فليب الخامس المزعومة لاستئناف شعائر العبادة اليهودية سراً ، واكتشفت حالات كثيرة ، وأعدم ديوان التفتيش بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٢٠ ثلاثة يهود فى برشلونه ، وخمسة فى قرطبة ، وثلاثة وعشرين فى طليطلة ، وخمسة فى مدريد . واحفظت الديوان هذه الاكتشافات فهب ينشط من جديد ، وبلغ عدد الدعاوى التى نظرتها محاكمه بين عامى ١٧٢١ و ١٧٢٧ أكثر من ثمانمائة بتهمة اليهودية من بين ٨٦٨ دعوى ، وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا . أما بعد ذلك فالحالات المثيلة كانت نادرة جداً . وفى سنوات الديوان الختامية ، (١٧٨٠ — ١٨٢٠) حاكم الديوان الأسبانى نحو خمسة آلاف متهم ، لم يرم منهم باليهودية غير ستة عشر ، وكان عشرة منهم أجانب (١٢) . وظلت قوانين أسبانيا تحرم من المناصب المدنية أو الحربية جميع الأشخاص الذين لايستطيعون إثبات نقاء دمائهم من كل أثر علق به من أسلاف يهود . وقد شكا المصلحون من أن هذا الشرط حرم الجيش والحكومة الأسبانيين من خدمات الكثير من الرجال الأكفاء . وفى ١٧٨٣ خفف شارلى الثالث هذه القوانين (١٣) .

أما فى البرتغال فقد أحرق ديوان التفتيش سبعة وعشرين يهودياً لرفضهم الارتداد عن الديانة اليهودية (١٧١٧) (١٤) . وقد وفد على لشبونه فى ١٧١٢ قادماً من ريودجانيرو أنطونيو دا سيلفا ، الذى كان فى رأى سوذى أفضل كتاب المسرحيات البرتغال ؛ فقبض عليه هو وأمه فى ١٧٢٦ لأنهما يهوديان ، وأحرقت الأم ، واستعطف الإبن فأطلق سراحه ،

ويبدو أنه ارتد بعد ذلك ، لأنه أحرق فى ١٧٣٩ ولما يعد الخامسة والثلاثين [١٥] ثم أنهى المركيز دبومبال بإصلاح من اصلاحاته الكثيرة كل تفرقة بين المسيحيين القدامى والمحدثين (الذين اعتنقوا المسيحية) (١٧٧٤) [١٦] .

أما فى إيطاليا فقد سبقت البندقية غيرها إلى تحرير اليهود ، ففى ١٧٧٢ أعلن أن يهود الجمهورية أحرار متساوون مع سائر السكان . وتخلفت روما ، وكان الغيت (حى اليهود) هناك أسوأ أحيائهم فى أوربا . وزادت خصوبة الإنجاب الشديدة التى شجعها الأحبار من الفقر والقذارة ، وأتت على يهود روما فترة كان عشرة آلاف منهم يسكنون فى حيز لا يزيد على كيلو متر مربع واحد [١٧] . وكان نهر تيبر يفيض على ضفافه كل عام فيغمر شوارع الحى الضيقة ويملأ الحجرات السفلى بالطين الموبوء . واحترف يهوديو روما الحياطة لحرمانهم من أكثر الحرف ؛ ففى ١٧٠٠ كان ثلاثة أرباع الذكور البالغين منهم خياطين [١٨] ، فبدأوا بذلك عادة تحدرت بينهم حتى أيامنا هذه . وفى ١٧٧٥ أصدر بيوس السادس مرسوماً بابوياً جدد فيه القديم من المحظورات على اليهود وأضاف إليها جديداً : فحرم عليهم ركوب العربات ، وترتيل المراثى فى الجنائز ، وإقامة الشواهد على قبور موتاهم [١٩] . وكان على يهود روما أن ينتظروا مجىء نابليون ليحررهم من هذه القيود .

وأما فى النمسا فقد أحست ماريا تريزا أن التقوى تلزمها بحبس اليهود فى أحياء ضيقة بعينها ، وبحرمانهم من الحرف والمناصب وتملك العقارات [٢٠] ، ولكن ابنها يوزف الذى مسه التنوير الفرنسى اقترح على مجلس الدولة فى ١٧٨١ مشروعاً « يفيد به المجتمع من طبقة الإسرائيليين الكبيرة فى أراضينا الوراثية » (النمسا والمجر وبوهيميا) وذلك بتشجيعهم على أن يتعلموا — وبعد ثلاثة أعوام يشترط عليهم أن يستعملوا — اللغة القومية فى جميع الشئون القانونية أو السياسية أو التجارية . ويجب ألا « يضايق اليهود على أى وجه فى ممارسة شعائرهم أو عقائدهم » . وينبغى دعوتهم للاشتغال بالزراعة ، ولدخول ميدان الصناعة والتجارة ، ولممارسة الفنون — على أن يظل محظوراً عليهم أن يصبحوا معلمى حرف فى النقابات الحرفية ، لأن هذا يتطلب حلف يمين الولاء للعقيدة المسيحية . ثم تلغى كل أسباب التفرقة المهنية ، وكل

القيود المفروضة إلى ذلك الحين على اليهود ، « وكذلك كل العلامات الظاهرة أيا كانت» . واعترض مجلس الدولة والمديرون الإقليميون على البرنامج لأنه فضفاض مفاجيء بحيث لايقبله الشعب . وقدم يوزف حلا وسطاً ، فأصدر فى ٢ يناير ١٧٨٢ « ترخيص تسامح » ليهود فيينا والنمسا السفلى : فنالوا بمقتضاه حق إدخال أبنائهم مدارس الدولة وكلياتها ، والتمتع بالحرية الاقتصادية إلا أن يتملكوا العقارات ؛ ولكن حرم عليهم التنظيم الطائفى المستقل ، وبناء المجامع فى العاصمة ، ومنعوا من سكنى مدن معينة — ربما لأن العداء لليهود فيها كان مستحكماً إلى درجة خطرة . ونصح يوزف رعاياه المسيحيين باحترام أشخاص اليهود وحقوقهم باعتبارهم اخواناً لهم ، وكل إهانة أو عنف يعامل به يهودى « سيعاقب مقترفه عقاباً صارماً » ، ويجب يمنع إدخالهم فى المسيحية بالإكراه . وما لبث الإمبراطور أن أصدر تراخيص مماثلة لبوهيميا ومورافيا وسيليزيا النمساوية . وقد قدر لليهود مساهماتهم فى خزانته ، فخلع النبالة على عدة يهود ، واستخدم عدداً منهم ما لبين للدولة(٢١).

ولكن إصلاحاته — كما ذكر المبعوث الفرنسى إلى فيينا — « اثارت صيحة استنكار عامة . . . والتسهيلات الكبيرة الممنوحة لليهود يراها الناس مفضية بلا ريب إلى خراب الدولة »(٢٢) . وشكا التجار المسيحيون من المنافسة الجديدة ، وأدان القساوسة المراسيم لأنها تتسامح مع الهرطقة السافرة ، واعترض بعض الحاخامات على اختلاف الأطفال اليهود إلى مدارس الدولة مخافة أن تفتن الشباب عن اليهودية . ولكن يوزف أصر على موقفه ، وقبل أن يموت بسنة وسع « ترخيص التسامح » ليضم غاليسيا أيضاً ، وكانت إحدى مدنها ، وهى برودى ، تضم خلقاً كثيراً من اليهود (١٨,٠٠٠) حتى لقد لقبها الإمبراطور أورشليم الحديثة . وعند موت يوزف (١٧٩٠) كانت فيينا قد عودت نفسها على النظام الجديد ، ومهدت الأرض لثقافة فيينا اليهودية المسيحية الرائعة التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر .

ويمكن القول عموماً إن حظ اليهود فى الأقطار الإسلامية كان خيراً من

حظهم فى الأقطار المسيحية . وقد وصفت الليدى مارى ورتلى مونتجيو ، ربما فى شىء من المبالغة حالهم فى تركيا عام ١٧١٧ فقالت :

« إن اليهود . . . يتمتعون بسلطان لايصدق فى هذا البلد . فلهم امتيازات كثيرة يفوقون فيها جميع الأهالى الأتراك أنفسهم . . . لأنهم يحاكمون طبقاً لقوانينهم . وقد استقطبوا كل تجارة الإمبراطورية فى أيديهم ، وذلك بفضل ما يربطهم من وحدة وثيقة من جهة ومن جهة أخرى لبلادة الترك وافتقارهم إلى الجد والاجتهاد . ولكل باشا مساعده اليهودى الذى يدير أعماله . . . وهم الأطباء ، والوكلاء ، والمترجمون ، لأكابر القوم أجمعين . . . وكثير منهم ذووثراء عريض »[٢٣] .

والبون شاسع بين حظ هؤلاء وحظ اليهود القلائل الموجودين فى روسيا — لاسيما فى « أقاليم التخوم » المواجهة لبولنده — عند وفاة بطرس الأكبر . وفى ١٧٤٢ أمرت الإمبراطورة اليزابث بتروفنا بأن « يرحل فوراً من أمبراطوريتنا كلها . . . جميع اليهود . . . ولا يسمح لهم منذ الآن بدخول امبراطوريتنا بأية حجة . . . ما لم . . . يعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الرومى » . وما حلت سنة ١٧٥٣ حتى كان قد طرد قرابة ٣٥,٠٠٠ يهودى[٢٤] وتشفع بعض رجال الأعمال الروس لدى الإمبراطورة لتخفف من صرامة المرسوم ، محتجين بأن طرد اليهود قد أحدث كساداً فى اقتصاد الأقاليم لأنه حول التجارة منها إلى بولنده وألمانيا ، ولكن اليزابث لم تلن لها قناة .

فلما أن تربعت العرش كاترين الثانية أرادت أن تسمح بدخول اليهود من جديد ، ولكنها أحست بأن هذا العرش يهتز من تحتها اهتزازاً لاتجرؤ معه على التصدى لمعارضة رجال الدين . غير أن التقسيم الأول لبولنده أوصل المشكلة إلى مرحلة جديدة . فما العمل فى ٢٧,٠٠٠ يهودى طال مقامهم فى ذلك الجزء من بولنده الذى ظفرت به روسيا الآن ؟ لذلك أعلنت كاترين (١٧٧٢) أن « الجماعات اليهودية المقيمة فى المدن والأقاليم التى أدمجت الآن فى الإمبراطورية الروسية تترك لتتمتع بجميع الحريات التى تملكها الآن »[٢٥] . وسمح لهؤلاء اليهود البولنديين بقسط كبير من الحكم الذاتى ، وأجيز لهم

شغل المناصب البلدية ، ولكن حرم عليهم الهجرة من « نطاق الاستيطان » (الأقاليم البولندية السابقة) إلى داخل روسيا . وفى ١٧٩١ أبيح لليهود أن يستوطنوا أقاليم خرسون وتاوريدا وإكاترينوسلاف سبيلا إلى التعمير السريع لهذه الأقاليم المفتوحة حديثاً وتيسير الدفاع عنها . وكان العداء الإقتصادى لليهود الذى يلقونه من معظم رجال الأعمال الروس ، والعداء الدينى الذى يلقونه من عامة الروس ، يجعلان الحياة أثناء ذلك شاقة خطرة على اليهود فى الإمبراطورية .

وفى ١٧٦٦ كان يسكن بولنده ٦٢١,٠٠٠ يهودى [٢٦] . وقد صدق أوغسطس الثانى وأغسطس الثالث على « امتيازات » الحماية التى منحها لهم الحكام السابقين ، ولكن هذين الحاكمين السكسونيين ، المشغولين بمملكتين ومذهبين دينيين (فضلا عن خليلاتهما) ، لم يتح لهما وقت يذكر للتصدى لذلك العداء العرقى الذى استشعرته الجماهير البولندية نحو اليهود . ففرضت الحكومة عليهم ضرائب إضافية ، وحاول الإقطاعيون الهبوط بهم إلى درك الإقنان ، وكلفهم الحكام المحليون ثمناً باهظاً لحمايتهم من عنف الغوغاء . وندد القساوسة باليهود لأنهم « متشبثون بكفرهم » وطالب مجمع كنسى عقد فى ١٧٢٠ بأن تحظر الحكومة « بناء المجامع الجديدة لليهود وترميم القديمة منها » . وكرر مجمع عقد فى ١٧٣٣ مبدأ العصر الوسيط القائل بأن المبرر الوحيد للتسامح مع اليهود هو أنهم قد يصلحون « أداة للتذكير بعذابات المسيح ، ومثلا يضرب — بعبوديتهم وبؤسهم — للعقاب العادل الذى ينزله الله بالكافرين » [٢٧] .

وفى ١٧١٦ نشر عبرانى دخل فى المسيحية يدعى سيرافينوفتش كتاباً اسماه « فضح الشعائر اليهودية » اتهم فيه اليهود باستعمال دم المسيحيين لشتى الأغراض السحرية : لتلطيخ أبواب المسيحيين ، ولمزجه بالفطير الذى يأكلونه فى الفصح ، ولغمس قطعة قماش فيه محتوية على تعزيمة يقصد بها حماية بيت أو انجاح تجارة . . . وتحدى اليهود سيرافينوفتش أن يثبت صحة دعاواه ، وجمعوا مجلساً من الحاخامات والأساقفة ليستمعوا إليه ، ولكنه لم يمثل أمام المجلس ، بل أعاد نشر كتابه [٢٨] . وقد اتهم اليهود غير مرة بقتل

الأطفال للحصول على دم مسيحى ، واستدعى يهود بولنديون لمحاكمتهم على تهم كهذه فى ١٧١٠ و ١٧٢٤ و ١٧٣٦ و ١٧٤٧ و ١٧٤٨ و ١٧٥٣ و ١٧٥٦ و ١٧٥٩ و ١٧٦٠ ، وعذبوا فى حالات كثيرة ، حتى الموت أحياناً ، وسلخت جلود بعضهم أحياء ، ومات بعضهم بالخازوق موتاً بطيئاً . . . [٢٩] وفزع اليهود المروعون إلى البابا بندكت الرابع عشر ليكف عنهم هذه الاتهامات ، وعرضت أدلة الإثبات والنفى على الكردينال كامبانيللى ، وبعد أن تلقى تقريراً من السفير البابوى فى وارسو ، أصدر مذكرة مؤداها أنه لم يثبت فى حالة من هذه الحالات أنهم مذنبون . وأيدت محكمة ديوان التفتيش بروما مذكرة الكردينال . وكتب السفير البابوى للحكومة البولندية (١٧٦٣) يقول « ان الحبر الأقدس ، بعد فحص كل الأسس التى قام عليها اتهامهم بهذا الشذوذ — وهو أن اليهود يحتاجون إلى الدم البشرى لتجهيز فطيرهم ، خلص إلى أنه ما من دليل يثبت صحة ذلك الاتهام المغرض » [٣٠] . وكان البابا انوسنت الرابع قد أصدر حكماً مماثلا فى ١٢٤٧ . ولكن الاتهام بالشذوذ لم يتوقف .

وكان الخوف من المذابح عنصراً يتردد فى حياة اليهود البولنديين . ففى ١٧٣٤ و ١٧٥٠ و ١٧٦٨ تألفت جماعات من القوزاق والفلاحين الأرثوذكس الروس الذين نظموا على شكل عصابات مثيرة للشغب ، وشنت الغارات على كثير من المدن والقرى فى أقاليم كييف وفولهينيا وبودوليا ، وينهبون الضياع ويقتلون اليهود . وفى ١٧٦٨ حمل المغيرون « مرسوماً ذهبياً » نسب زوراً وبهتاناً إلى كاترين الثانية ، ويدعوهم إلى « استئصال شأفة البولنديين واليهود ، الذين يدنسون ديانتنا المقدسة » ، وذبحوا فى مدينة واحدة هى أومان عشرين ألف بولندى ويهودى . وجردت كاترين جيشاً روسياً يتعاون مع القوات البولندية على قمع المغيرين [٣١] .

أما فى المانيا فإن اليهود كانوا يعيشون فى أمن ورخاء نسبيين وإن عانوا من شتى المعوقات فى الحياة الاقتصادية والسياسية . فقد فرضت عليهم ضرائب خاصة فى معظم الإمارات [٣٢] . ولم يسمح القانون إلا لعدد محدود من اليهود بالعيش فى برلين ، ولكن القانون لم ينفذ بدقة ، فزادت الجالية

البرلينية عدداً ومالا ، وقامت مستوطنات مماثلة فى همبورج وفرانكفورت. وبلغ عدد من اختلف من التجار اليهود إلى سوق ليبنزج فى ١٧٨٩ نيفا وألف تاجر(٣٣) . واستخدم الحكام الألمان ، وحتى الأمراء — الأساقفة الكاثوليك منهم ، اليهود لإدارة شئونهم المالية أو لتموين جيوشهم . وقد أدى يوزف أوبنهايمر (١٦٩٢ — ١٧٣٨) المعروف باسم « اليهودى سوس » هذه المهام وغيرها لناخب بالاتين فى مانهايم ، ولكارل الكسندر دوق فورتمبرج . وكان لذكائه واجتهاده الفضل فى إثرائه وإثراء الدوق ، وفى اكتسابه الكثير من الأعداء . وقد اتهم بالغش فى دار ضرب النقود ، ولكن مجلساً من المحققين برأ ساحته ، فرقى عضواً فى مجلس الدوق الخاص ، حيث لم يلبث أن أصبح القوة المسيطرة . وقد ابتكر ضرائب جديدة ، وأنشأ احتكارات ملكية ، وقبل على ما يبدو الرشا — التى اقتسمها مع الدوق(٣٤) . فلما اقترح الدوق ايداع جميع أموال الكنيسة فى مصرف مركزى للدولة ، انضم رجال الدين البروتستنت مع الإشراف فى معارضة الدوق ووزيره . وفى ٣ مارس ١٧٣٧ مات الدوق فجأة ، فقبض قادة الجيش والزعماء المدنيون على أوبنهايمر وكل يهود شتوتجارت ، وحوكم أوبنهايمر وادين ، وفى ٣ فبراير ١٧٣٨ خنق وعلقت جثته فى قفص فى ميدان عام(٣٥) .

ذكرنا من قبل جولات جوته فى حى اليهود بفرانكفورت . وقد اشتقت أسرة من أقدم الأسرات هناك اسمها الأخير ، وهو روتشيلد ، من الدرع الحمراء التى ميزت مسكنها . وفى ١٧٥٥ أصبح ماير أمشيل صاحب الدرع الحمراء رب الأسرة بعد وفاة أبويه ، وكان فى الحادية عشرة من عمره . وكانت كثرة الدويلات الألمانية ، وكل لها عملتها المستقلة ، قد جعلت تغيير النقود ضرورة متكررة للمسافرين ؛ وتعلم ماير فى صباه معادلات النقود بين الدويلات ، فكان يتقاضى رسماً صغيراً على كل تحويل . ثم درس علم العملات هواية جانبية وجمع العملات النادرة ، وأرشد جماعاً آخر هو الأمير فلهلم الهاناوى وحصل منه على لقب « وكيل التاج » الذى ساعده فى عمله بفرانكفورت . ثم تزوج

فى ١٧٧٠ ، وأنجب خمسة أبناء ، أنشأوا فيما بعد فروعاً لشركة روتشيلد فى فيينا ونابلى وباريس ولندن . واكتسب ماير سمعة الحكم السديد والنزاهة والجدارة بالثقة . فلما ان خلف فلهلم أمير هاناو أياه حاكماً على هسى كاسل ، ازداد تعامل ماير أمشيل مع القصر ، فما وافى عام ١٧٩٠ حتى بلغ دخله السنوى ثلاثة آلاف جولدن — وهو ما يعادل دخل أبى جوته الثرى ستمائة مرة [٣٦] . ونمت ثروة الأسرة نمواً سريعاً خلال حروب الثورة الفرنسية ، وشغل ماير بتموين الجيوش ، وعهد إليه بإخفاء أموال الأمراء وأحياناً باستثمارها .

وواصل اليهود فى الأراضى الواطئة واسكندناوه تمتعهم بحرية نسبية . وازدهرت جماعة أمستردام اليهودية . ولم تعرف الأحياء المقصورة على اليهود فى الدنمرك ، فقد تنقل اليهود بحرية وسمح بالزيجات المختلطة . وفى ألتونا ، المدينة التجارية الواقعة وراء نهر ألب من همبورج ، والتى كانت أنئذ ملكاً للدنمرك ، عاشت جالية من أغنى الجاليات اليهودية فى أوربا . وفى السويد بسط جوستاف الثالث حمايته على اليهود فى ممارستهم السلمية لشعائرهم .

ووجد كثيرين من اليهود الهاربين من الاضطهاد فى بولنده وبوهيميا الملجأ فى انجلتره . وزاد عددهم من ٦,٠٠٠ فى ١٧٣٤ إلى ٢٦,٠٠٠ فى ١٨٠٠ ، وكان نصيب لندن منهم ٢٠,٠٠٠ . وكانوا يعيشون فى فقر مدقع ، ولكنهم رعوا فقراءهم وتكفلوا بنفقات مستشفياتهم [٣٧] . وكان تعقب اليهود ومطاردتهم رياضة محببة للناس ، اضمحلت حين تعلم اليهود الملاكمة وغدا أحدهم بطل الملاكمة القومى [٣٨] . وقد أقصى شرط حلف يمين الولاء للمسيحية اليهود عن الوظائف المدنية والحربية . وأصبح سامسون جدعون أحد محافظى بنك انجلتره بعد أن قبل الدخول فى المسيحية . وفى ١٧٤٥ ، حين كان الشاب المطالب بالعرش يزحف على لندن بجيش اسكتلندى أخذ على نفسه العهد بخلع جورج الثانى ورد آل ستيوارت إلى العرش ، فأصاب الذعر جماهير الشعب بعد أن فقدوا الثقة فى أمن الحكومة وسلامها وهددوا بالتزاحم على المصرف لاسترداد ودائعهم ، فى هذا الظرف قاد

جدعون التجار والأعيان اليهود لإنقاذ المصرف ، فتدفقت أموالهم الخاصة فيه ، وتعهدوا بقبول بنكنوت المصرف بالقيمة الإسمية فى معاملاتهم التجارية ووفى المصرف بالتزاماته ، وأعيدت الثقة ، ورد المطالب بالعرش على أعقابه (٣٩) .

وأعربت وزارة الأحرار (الهوجز) عن تقديرها لصنيع اليهود بتقديمها مشروع قانون إلى البرلمان (١٧٥٣) يبيح الجنسية والمواطنة لجميع اليهود المولودين فى الخارج والذين أقاموا فى انجلتره أو ارلنده ثلاثة أعوام ؛ (أما اليهود المولودين هناك فكانوا يكتسبون الجنسية بالمولد (٤٠) . ووافق اللوردات والأساقفة على المشروع ، ووافق عليه أعضاء مجلس العموم بأغلبية ستة وتسعين صوتاً مقابل خمسة وخمسين . ولكن الشعب البريطانى الذى لم يكن له كبير علم أو فهم للدور الذى لعبه اليهود فى إنقاذ المصرف هب معارضاً مشروع القانون معارضة ساحقة . وانهالت الاحتجاجات على البرلمان من كل مدينة فى بريطانيا تقريباً ، وأجمعت المنابر والحانات على إدانته ، وشكا التجار من أن منافسة اليهود لهم فى التجارة ستصبح أمر لا يحتمل . وكان الشتم والإهانة فى الشوارع نصيب الأساقفة الذين صوتوا للمشروع ؛ وبعثت الأساطير القديمة التى ادعت قتل اليهود للمسيحيين طبقاً لشعائرهم ، وأذيعت مئات النشرات والقصائد الشعبية والصور الكاريكاتورية والأهاجى الساخرة ، وزين النساء ثيابهن وصدورهن بالصلبان ولبسن أوشحة تحمل هذا الشعار « لا يهود ، المسيحية إلى الأبد » (٤١) . وخاف زعماء الأحرار الهزيمة فى الانتخاب القادم فحصلوا على إلغاء القانون (١٧٥٤) .

٢ — العزاء الصوفى

ولاذ كثير من اليهود ، لاسيما فى بولنده ، بأسباب العزاء فوق الطبيعى هرباً من معاناتهم الأرضية . وأتلف بعضهم بصرهم بإدمان قراءة التلمود ، وفقد بعضهم عقولهم فى القبلانية ، وظل بعض « الصبطائيين » يؤمنون بألوهية صبطاى زيفى رغم ارتداد هذا المسيح الكاذب وموته ، وانصرفوا عن اليهودية التلموذية إلى الآمال والطقوس المهرطقة . وأقنع يانكيف ليبوفتش ،

الذى أصبح معروفاً باسم يعقوب فرانك الذى أطلقه عليه الترك ، مئات من اليهود البولنديين بأن روح زيفى تقمصته ، وعلمهم عقيدة شبيهة بهرطقة مسيحية لطيفة تصورت الثالوث مؤلفاً من الله الآب ، ومريم الأم ، والمسيح ابنهما ، وأخيراً قاد اتباعه إلى الكنيسة الكاثوليكية (١٧٥٩) .

وأنقذت الحركة « القاصدية » اليهود البولنديين بعض الإنقاذ من حالتهم الوضعية . وكان مؤسس « عقيدة التقوى » هذه اسرائيل بن ألعازر ، المعروف باسم بعل شم — توب (« السيد الصالح لاسم الله ») ، واختصاراً باسم « بشت » الجامع لأول حروف اسمه الكامل . وكان يجوب البلاد معلماً للأطفال ، وعاش فى فقر تجمله البهجة ، وكان يصلى بانتشاء ويشفى المرضى شفاء « معجزياً » بالأعشاب الجبلية . وقد طلب إلى اتباعه ألا يعيروا طقوس المجمع والمعرفة التلمودية كبير اهتمام ، وان يقتربوا إلى الله رأساً فى شركة متواضعة ولكنها حميمة ، وان يبصروا الله ويحبوه فى شتى صور الطبيعة ومظاهرها ، فى الصخور والأشجار ، وفى حالات اليسر والألم ؛ وأمرهم بأن يستمتعوا بالحياة فى الحاضر بدلا من البكاء على خطايا الماضى وآلامه . وكانت أقواله المأثورة البسيطة أحياناً تشبه أقوال المسيح . « شكا بشت أن ابنه ترك الله ، وسأله قائلا : يا معلم ، ماذا أصنع؟ وأجابه بشت : أحبه أكثر مما فعلت فى أى وقت»[٤٢] .

والحركة القاصدية فى بولنده تقابل من بعض الوجوه حركات الأخوان الموافيين . والتقويين الألمان ، والمثوديين الانجليز ؛ فقد اتفقت مع هذه الحركات على اخراج الدين من المعبد وإدخاله إلى القلب ، ولكنها رفضت النسك والاكتئاب ، وأمرت اتباعها بأن يرقصوا ، ويستمتعوا بعناق أزواجهم ، لا بل بالشراب بين الحين والحين إلى حد النشوة .

فلما مات بعل شم — توب (١٧٦٠) تولى رعاية قطيعه ، وأحياناً جز صوفه ، [٤٣] سلسلة من « الصديقين » . وحارب التلموديون السنيون بزعامة عالم متعصب من فلنا يدعى إيليا بن سليمان « القاصدين » بالنصح والحرم ، ولكن عددهم زاد بانهيار بولنده (١٧٧٢ — ٩٢) ، ولم يختتم القرن حتى كانوا يعدون ١٠٠,٠٠٠ نسمة [٤٤] .

وما كان لحياة مطاردة على الأرض على هذا النحو ، ونفوس مثبتة فى السماء إلى هذا الحد ، ان تسهم بقسط كبير فى الأدب الدنيوى أو العلم أو الفلسفة . وكان اليهود فى كل بلد تقريباً ممنوعين من الالتحاق بالجامعات بحكم القسم بالولاء للعقيدة المسيحية المشترط على جميع الطلاب . ثم ان ناموس موسى حرم عليهم ممارسة فن التصوير وبلد تذوقهم الفنى . وإذ كانوا يكتبون بالعبرية التى لاتفهمها غير قلة قليلة ، أو بالييدية التى لم تكن بعد قد أصبحت لغة أدبية ، فقد افتقدوا الحافز لإنتاج أى أدب خلاف الشروح الدينية أو السفاسف الشعبية . وثمة اسهام بارز واحد أسهموا به فى الفنون العملية فى هذا العصر : فقد اخترع يعقوب رودريج بيرير ، وهو أحد يهود بوردو ، لغة إشارات للصم والبكم ، فأثنى عليه ديدرو ودالامبير وروسو وبوفون . ثم شاعر يهودى واحد أنار هذه الظلمة .

وقد ولد الشاعر موسى حايم لونساتو فى إيطاليا (١٧٠٧) لوالدين أتاح لهما بعض اليسر أن يحسنا تعليمه . وقد أخذ عن الشعراء اللاتين ، وعن الشعراء الإيطاليين من أمثال جواريني ، براعة فى الأوزان الشعرية مكنته من أن يسبغ على شعره العبرى من الإيقاع المتدفق والسحر الرقيق ما لم يعرف فى تلك اللغة منذ أيام يهوذا هاليفى . وحين بلغ السابعة عشرة كتب مسرحية عن شمشون والفلسطينيين . ثم أقبل على دراسة «الزهر» ، وهو كتاب القبلانية المقدسة ، فافتتن خياله بأوهامه الصوفية ، فأدار بعضها شعراً ، وأدارت هى رأسه فخيل إليه انه ملهم من السماء . فكتب «زهرا» ثانيا ، وأذاع انه المسيح الذى وعد به اليهود . فحرمه حاخامات البندقية (١٧٣٤) . ففر إلى فرانكفورت — على المين ، حيث أجبره الحاخامات على الوعد بالإقلاع عن أوهامه بأنه المسيح المنتظر . وانتقل إلى أمستردام حيث رحبت به الجالية اليهودية ، وهناك كسب قوته كما كسبه سبينوزا بصقل العدسات ، ثم استأنف دراساته القبلانية . وفى ١٧٤٣ ألف مسرحية عبرية «لا — ى أشاريم تهيللا (مجداً للأبرار) كان حظها التقريظ ممن كانوا أكفاء للحكم عليها ، برغم التجريدات التى استخدمها شخوصاً للمسرحية .

obeikandl.com

ومؤدى المسرحية أن الجهل المستشرى بين العوام ، يدعمه المكر والخداع ، يولد الحماقة ، التى تحبط الحكمة مراراً ، وتحرم الكفاية من تاجها ، حتى ينتصر العقل والصبر فى النهاية على الخداع بالكشف عن الحقيقة ، على أن « الحقيقة » كان يقصد بها القبلانية . وفى ١٧٤٤ ذهب إلى فلسطين ، أملا فى أن ينادى به المسيح المنتظر ، ولكنه مات فى عكا بالطاعون (١٧٤٧) وهو فى التاسعة والثلاثين . وكان آخر صوت فصيح لعصر اليهودية الوسيط ، كما كان أول صوت كبير ليهودية تنبعث من العزلة الواقية إلى الاحتكاك بالفكر الحديث .

٣ — موسى مندلسون

كان جد فيلكس مندلسون من أنبل شخصيات القرن الثامن عشر ، وكان صديقاً وخصماً لكانط ، وصديقاً وملهماً لليسنج . وكان أبوه مناحم مندل كاتباً ومعلماً بمدرسة يهودية فى دسو . وهناك ولد « موسى الثالث » فى ٦ سبتمبر ١٧٢٩ ، وشب مشغوفاً بالدرس حتى لقد أصابه شغفه هذا بتقوس مستديم فى العمود الفقرى . فلما بلغ الرابعة عشرة أوفد إلى برلين لمزيد من دراسة التلمود ، وهناك اتبع بحذافيره تقريباً أمر التلمود الذى نصه « كل الخبز بالملح ، واشرب الماء بمقدار ، ونم على الأرض اليابسة ، وعش عيشة الحرمان ، وليكن الناموس شغلك الشاغل »[45] . وظل سبع سنين قانعاً بسكناه فى إحدى العليات يعلم رغيف خبزه الأسبوعى بخطوط تحدد جرايته اليومية[46] ، ويكسب الرزق الضئيل بنسخ الوثائق بخطه الأنيق . وفى برلين أكب على آثار موسى بن ميمون ، ووجد الشجاعة فى حياة « موسى الثانى » ذاك وتعلم منه ومن الحياة أن ينزل بكبريائه إلى التواضع وبحدة طبعه إلى اللطف والمجاملة . وعلمه رفقاؤه البرلينيون اللاتينية والرياضيات والمنطق ، وقرأ لوك فى ترجمة لاتينية ، وانتقل إلى ليبنتس وفولف ، ولم يلبث أن عشق الفلسفة . ثم تعلم كتابة الألمانية فى نصاعة رقيقة ندر أن تجد لها نظيراً فى أدب وطنه فى جيله .

وانتهت أيام فقره حين أصبح فى الحادية والعشرين معلماً خاصاً فى أسرة صاحب مصنع حرير فى برلين يدعى إسحاق برنهارت ، وبعد أربع سنوات عين محاسباً بالشركة ثم مندوباً متجولا لها ، وأخيراً شريكاً فيها . وقد احتفظ بصلة العمل هذه بنشاط حتى نهاية عمره ، لأنه اعتزم ألا يعتمد فى رزقه على رواج كتبه وحصيلتها من المال . والراجح انه التقى بليسنج فى ١٧٥٤ ، على لعبة شطرنج فيما يبدو ، وهكذا بدأت صداقة اتصلت حتى موت ليسنج رغم ما بينهما من خلافات فلسفية . كتب ليسنج إلى صديق آخر فى ١٦ أكتوبر ١٧٥٤ يقول : « ان مندلسون رجل فى الخامسة والعشرين ، اكتسب دون أى تعليم جامعى معلومات كبيرة فى اللغات والرياضيات والفلسفة والشعر . وانى لأتطلع فيه إلى مفخرة لأمتنا إذا أتاح له اخوانه فى الدين أن يصل إلى درجة النضج . . . وأن صراحته وروحه الفلسفية ليجعلانى أعده سلفاً ، اسبينوزا ثانيا »(٤٧) . أما مندلسون فكان يقول ان كلمة ود أو نظرة محبة من ليسنج تطرد عنه كل حزن أو غم(٤٨) .

وفى ١٧٥٥ رتب ليسنج نشر كتاب مندلسون « أحاديث فلسفية » ، الذى شرح ودافع عن كلا من سبينوزا وليبنتس . وفى العام ذاته تعاون الصديقان على كتابة مقال « بوب ميتافيزيقيا ! » زعما فيه أن هذا الشاعر الانجليزى لم يكن له فلسفة من بنات أفكاره ، وكل ما فعله أنه نظم فلسفة ليبنتس شعراً . وفى ١٧٥٥ أيضاً نشر مندلسون « رسائل فى الوجدان » ، وقد سبق هذا كانط فى رأيه أن الإحساس بالجمال مستقل كل الاستقلال عن الشهوة . وقد اكسبت هذه الكتب المنشورة اليهودى الشاب الترحيب فى برلين بين « الإخوان الفلاسفة الذين لم يكونوا على تمام الصفاء والرزانة » . وعن طريق ليسنج التقى بفردريش نيقولاى ، ودرس هو ونيقولاى اليونانية معاً ، وما لبث أن بدأ يقرأ أفلاطون فى لغته الأصلية. ثم ساعد نيقولاى فى إنشاء مجلة سميت « مكتبة الآداب البحتة والفنون الجميلة » ، وأسهم فى هذه المجلة وغيرها من المجلات بمقالات كان لها تأثير قوى فى الأفكار السارية فى نقد الأدب والفن .

وأحس مندلسون الآن بقدر من الأمن والطمأنينة يتيح له أن يقيم بيتاً

خاصاً به . ففى ١٧٦٣ ، وهو فى الثالثة والثلاثين ، تزوج فرومريت جوجنهايم البالغة خمسة وعشرين ربيعاً . وكان كلاهما قد بلغ سن النضج الفكرى ، فأثمر اتحادهما الكثير من السعادة . وفى شهر العسل بدأ العمل فى مسابقة قدمت فيها أكاديمية برلين جائزة لأفضل مقال يتناول هذا الموضوع « هل العلوم الميتافيزيقية تقبل الأدلة كالعلوم الرياضية » . وكان من المتسابقين إيمانويل كانط . وفاز مقال مندلسون (١٧٦٣) ، فأتاه بخمسين دوقاتية وبشهرة دولية .

وكان بين المتسابقين توماس آبت ، وهو أستاذ فى فرانكفورت — على الأودر . وفى رسائل كثيرة تبادلها مع مندلسون أعرب عن شكوكه فى خلود الروح ، وأسف على أن فقدان ذلك المعتقد قد يقوض الناموس الأخلاقى ويحرم التعساء من آخر عزاء لهم . وبعض الفضل راجع إلى هذه الرسائل فى وضع مندلسون لأشهر كتبه قاطبة « فيدون » . وقد صاغه على مثال نموذجه الأفلاطونى فى شكل حوار وفى أسلوب ميسر . فروح الإنسان (كما يزعم) متمايزة من المادة بشكل واضح ، إذن لنا أن نعتقد أنها لاتشارك الجسد مصيره ؛ وإذا كنا نؤمن بالله فإننا لانستطيع الافتراض بأنه يخدعنا إذ يغرس فى عقولنا أملا دون أن يكون له أساس من الحقيقة . يضاف إلى هذا (وهو ما سيذهب إليه كانط) ان للروح حافزاً طبيعياً نحو كمال الذات ؛ وهذا لايمكن تحقيقه فى حياتنا ؛ ولا بد أن الله يسمح للروح بأن تحيا بعد موت الجسد. وقد شعر مند لسون بأنه « بدون الله ، والعناية الإلهية ، والخلود » تفقد كل طيبات الحياة قيمتها فى نظرى وتصبح حياتنا على الأرض . . . أشبه بالتيهان فى الريح والمطر دون أمل يعزى التائه بالعثور على غطاء ووقاء فى الليل »(٤٩). وبراهين الكتاب هشة ، ولكن أسلوبه أبهج قراء كثيرين ، ولاح أن الكاتب ظفر باستعادة سحر محاورات أفلاطون ، والواقع أن لقب « أفلاطون الألمانى» اسماً ثانياً لمندلسون. وطبعت من الكتيب خمس عشرة طبعة وترجم إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً كما ترجم إلى العبرية ، وكان فى جيله أوسع الكتب انتشاراً فى ألمانيا باستثناء القصص . وشارك هردر وجوته فى تقريظه .

وزار لافاتر مؤلفه ، وفحص رأسه ووجهه ، وأعلن أن كل نتوء وخط فيه يشي بروح سقراط(٥٠) .

وأشاد المسيحيون على اختلاف مذاهبهم باليهودى البليغ ، والتمس منه راهبان بندكتيان النصيحة الروحية . ولكن فى ١٧٦٩ أثار لافاتر ، الذى كان لاهوتياً غيوراً كما كان عالماً فى الفراسة ، ضجة بتوجيهه نداءا علنيا لمندلسون أن يدخل فى المسيحية . ورد مندلسون فى « (١٧٧٠) فسلم بعيوب الديانة اليهودية والحياة اليهودية ، ولكنه ذكر أن عيوباً كهذه تنشأ فى كل ديانة فى أثناء تاريخها ، وطلب إلى لافاتر أن يفكر فى الشدائد التى عاناها اليهود فى الأقطار المسيحية ، ثم أضاف : « أن الذى يلم بما نحن عليه الآن من حال ، ان كان له قلب رحيم ، سيفهم أكثر مما فى وسعى التعبير عنه » . واختتم بهذه العبارة « انى لوطيد الثقة بالعناصر الأساسية فى إيمانى . . . بحيث أشهد الله على انى سأثبت على عقيدتى الأصلية ما لم تتخذ روحى طبيعة أخرى » (٥١) وتأثر لافاتر ، واعتذر بتواضع عن توجيهه هذا النداء(٥٢) . ولكن نفراً كبيراً من المعلقين شهروا بمندلسون متهمينه بالكفر ، وأدانه بعض اليهود السنيين لتسليمه بأن هناك نقائص تسلك إلى الشعائر اليهودية(٥٣) . وظل الجدل حينا يثير من النقاش أكثر مما تثيره السياسة القومية أو تدهور صحة فردريك .

وعانت صحة مندلسون نفسه من هذه الضجة ، فاضطر طوال شهور من عام ١٧٧٢ أن يكف عن أى نشاط ذهنى . فلما استعاد عافيته كرس من وقته قدراً أكبر للتخفيف من آلام إخوانه فى الدين . وحين تهيأت بعض أقاليم سويسره لفرض مزيد من القيود على اليهود طلب إلى لافاتر أن يتدخل فى الأمر ، ففعل ، وكان موفقاً فى شفاعته . وحين وضعت سلطات درسدن خطة لطرد مئات من اليهود استعان مندلسون بصداقة تربطه بموظف محلى للحصول على الأمان لهم(٥٤) . وبدأ فى ١٧٧٨ نشر ترجمته للأسفار الموسوية الخمسة ، وأصدرها فى ١٧٨٣ ، فأثارت عاصفة جديدة . ولكى يكتب بعض الشروح على النص كلف هرتس هومبرج بالمهمة ، وكان مرتبطاً بيهود من برلين مبتوتى الصلة تماماً بالمجمع اليهودى . وحرم الترجمة أحبار عديدون ، ولكنها شقت طريقها إلى الجاليات اليهودية ، وتعلم شباب

اليهود الألمانية منها ، وتحرك جيل اليهود التالى للمشاركة النشيطة فى الحياة الفكرية لألمانيا . ونشر ليسنج خلال ذلك (١٧٧٩) مسرحيته « ناثان الحكيم » ، التى فسرها القراء على أنها تمجيد لصديقه اليهودى .

أما وقد بلغ مندلسون قمة الشهرة والنفوذ ، فإنه أقنع ماركوس هرتس بأن يترجم إلى الألمانية كتاب « الدفاع عن اليهود» الذى وجهه منسى بن اسرائيل إلى الشعب الانجليزى فى ١٦٥٦ . وأضاف إلى الترجمة مقدمة فى « خلاص اليهود »(١٧٨٢) ، ناشد فيها الأحبار أن يتخلوا عن حقهم فى الحرم . وأتبع هذا فى ١٧٨٣ بكتاب بليغ سماه « أورشليم ، أو فى السلطة الدينية والديانة اليهودية » ، أعاد فيه تأكيد إيمانه اليهودى ، وأهاب باليهود أن يخرجوا من عزلتهم وانطوائهم ويدلوا بدلوهم فى الثقافة الغربية ، وحث على الفصل بين الكنيسة والدولة ، وأدان أى إكراه فى الدين ، وذهب إلى أن الحكم على الدول يكون بقدر اعتمادها على الإقناع لا القوة . وكتب كانط ، الذى كان هو الآن أيضاً فى أوج شهرته ، إلى المؤلف رسالة تستحق أن يفرد لها مكان فى سجلات الصداقة . قال :

« انى أعد هذا الكتاب بشير إصلاح عظيم لن يؤثر فى شعبك فحسب بل فى الشعوب الأخرى . فلقد وفقت فى الجمع بين دينك وبين قدر من حرية الضمير لم يتصور أحد أنه ميسور . . . ثم انك فى الوقت نفسه أبنت فى كثير من الوضوح والدقة ضرورة حرية الضمير التى لاحدود لها فى كل دين ، بحيث أن كنيستنا (اللوثرية) ستضطر آخر الأمر إلى النظر فى أن تزيل من وسطها كل شىء من شأنه إقلاق الضمير أو إكراهه »[٥٥] .

وهاجم الكتاب الزعماء السنيون مسيحيين كانوا أو يهوداً ، ولكنه أسهم إلى حد هائل فى تحرير اليهود وتغريبهم .

فى عام ١٧٨٣ لم يكن مندلسون قد تجاوز الرابع والخمسين ، ولكنه كان دائماً رقيق البنية معتل الصحة ، وقد أحس أنه لم يبق له من الأجل كثير . وفى أخريات سنية ألقى على أبنائه وعلى بعض أصحابه محاضرات حدد فيها عقيدته الدينية ، وقد نشرت فى عام ١٧٨٥ باسم « ساعات الصباح أو محاضرات فى وجود الله » . وفى آخر سنة من عمره صدمه أن يقرأ فى كتاب

ألفه ياكوبى أن صديقه العزيز ليسنج ، والذى كان قد فارق الحياة ، اتبع طويلا عقيدةسبينوزا فى وحدة الوجود ، فلم يستطع أن يصدق الخبر ، وكتب دفاعاً حاراً عن ليسنج عنوانه « إلى أصدقاء ليسنج » . وفيما هو حامل المخطوط إلى الناشر أصيب بنزلة برد ؛ وأثناء مرضه ذاك أصيب بسكتة دماغية أودت بحياته فى ٤ يناير ١٧٨٦ . واشترك المسيحيون مع اليهود فى إقامة تمثال له فى مسقط رأسه دسو .

لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً فى جيله . فقد خرج شباب اليهود من عزلتهم بعد أن ألهمتهم كتاباته وعبوره الناجح للفواصل الدينية ، ولم يلبثوا أن تركوا بصماتهم على الأدب والعلم والفلسفة . فذهب ماركوس هرتس إلى جامعة كونجزبرج فى طلب الطب ؛ والتحق بعدة فصول دراسية لكانط ، وأصبح المساعد والصديق لفيلسوف المعرفة العظيم . وهو الذى توقف فى منتصف قراءته « نقد العقل الخالص » مخطوطاً مخافة أن يصاب بالجنون إذا مضى فى القراءة إلى النهاية . فلما نقل إلى برلين ، اشتغل بالطب وكثر زبائنه ، وألقى محاضرات فى الفيزياء والفلسفة على جمهور من المسيحيين واليهود . وافتتحت زوجته الجميلة المثقفة هنرييتا صالوناً كان فى نهاية القرن ملتقى هاماً لمفكرى برلين ؛ وإليه اختلف فلهلم فون همبولت ، وشلايرماخر ، وفريد ريش شليجل ، وميرابو الابن . . . ولعل اختلاط الأفكار الذى تمخضت عنه هذه اللقاءات ماكان ليسر مندلسون . فقد دخل عدد من أبنائه فى المسيحية . واشترك ابنتان من بناته مع هنرييتا هرتس وغيرها فى « رابطة للفضيلة » تحترم « الانجذابات العاطفية » أكثر من الولاء الزوجى . وكان لهنرييتا علاقة غرام بشلاير ماخر ؛ وهجرت دوروتيا مندلسون زوجها لتصبح خليلة فزوجة وفية لفريد ريش شليجل ، وأخيراً تابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ؛ كذلك أعتنقت هينرييتا مندلسون العقيدة الرومانية ، وجعل أبراهام مندلسون أبناءه ، ومنهم فيلكس ، يعمدون فى الكنيسة اللوثرية ؛ وزعم الحاخامات السنيون أنهم كانوا على حق فى مخاوفهم . ولكن هذه كانت نتائج عارضة للحرية الجديدة ؛ أما النواحى الأبقى على الزمن فى تأثير مندلسون فقد ظهرت فى تحرير اليهود فكرياً واجتماعياً وسياسياً .

٤ — نحو الحرية

وفى هذه الحقبة اتخذ التحرير من الناحية الفكرية ، شكل « المسقلة » — وهى كلمة كانت تعنى الحكمة ، ولكنها أصبحت فى هذا السياق ترمز إلى التنوير اليهودى ، أو تمرد عدد متزايد من اليهود على سيطرة الأحبار والتلمود ، وتصميمهم على أن يندمجوا اندماجاً نشيطاً فى تيار الفكر الحديث . وتعلم هؤلاء المتمردون الألمانية ، وتعلم بعضهم الفرنسية — لا سيما فى أسر التجار أو الماليين ؛ وقرأوا مؤلفات أحرار الفكر الألمان أمثال ليسنج ، وكانط ، وفيلاند ، وهردر ، وشيلر ، وجوته ؛ وكثيرون نقبوا فى أعمال فولتير ، وروسو ، وديدرو ، وهلفتيوس ، ودولباخ . ووقع انقسام بين اليهود المتحررين المقبلين على الحداثة ، واليهود المحافظين الذين شعروا بأن الولاء للتلمود والمجمع هو الطريق الأوحد للحفاظ على الوحدة الدينية والعرقية والأخلاقية للشعب اليهودى .

وانتشرت حركة المسقلة من ألمانيا جنوباً إلى غاليسيا والنمسا ، وشرقاً إلى بوهيميا وبولنده وروسيا . وزاد من سرعتها فى النمسا ترخيص التسامح الذى أصدره يوزف الثانى ، والذى دعا اليهود إلى دخول المدارس غير اليهودية . فلما عارض الأحبار المحافظون ، ناشدهم شاعر يهودى هامبورجى يدعى نفتالى فيسيلى ، فى بيان يهودى بليغ ، أن يباركوا اشتراك اليهود فى التعليم العلمانى ؛ وحث الجيل الصاعد على أن يحلوا العبرية والألمانية محل اليبدية ، وأن يدرسوا العلوم والفلسفة كما يدرسون التوراة والتلمود . وقد رفض أحبار النمسا آراءه ؛ ولكن قبلها زعماء اليهود فى تريسته والبندقية وفرارا وبراغ . ومنذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا أسهم اليهود فى العلم والفلسفة والأدب والموسيقى والقانون بقدر يفوق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان .

وأعانت التطورات الفكرية والاقتصادية على تحرير اليهود . فنشر الدارسون الكاثوليك من أمثال رتشرد سيمون المعارف الربانية بين طلاب الكتاب المقدس ؛ وألف لاهوتى بروتستنتى يدعى جاك باناج كتاباً مشرباً بروح الود يسمى « تاريخ ديانة اليهود » (١٧٠٧) . وجمع نمو التجارة

والمالية بين المسيحيين واليهود فى اتصالات أججت أحياناً نار الخصومة العرقية ، ولكنها كثيراً ما خففت منها . ولعب الماليون اليهود فى عدة حكومات أدواراً تجلت فيها روح العون والوطنية .

وارتفعت الآن أصوات مسيحية تقترح انهاء الاضطهاد الدينى ، ففى ١٧٨١ نشر كرستيان فاهلم دوم ، وكان صديقاً لمندلسون ، بناء على اقتراحه نبذة خطرة الأثر سماها « فى تحسين الأحوال المدنية لليهود فى ألمانيا » . وكانت المناسبة نداء وجهه يهود الالزاس إلى مندلسون يطلبون إليه كتابة احتجاج على القيود المفروضة عليهم . واضطلع دوم بالمهمة ، ووسعها إلى نداء عام لتحرير اليهود . . ووصف فى تفصيل مؤثر ، المعوقات التى يعانيها اليهود فى أوربا ، وأشار إلى فداحة الخسارة التى خسرتها الحضارة الغربية لأنها لم تفد فائدة تذكر من مواهب اليهود العقلية — « ان مبادىء التفرقة هذه ، المنافية للإنسانية والسياسية على حد سواء ، تحمل طابع العصور المظلمة ، وهى غير جديرة بتنوير عصرنا هذا » (٥٦) واقترح دوم السماح لليهود بحرية العبادة الكاملة وبالالتحاق بمعاهد التعليم ، وبممارسة جميع المهن والحرف ، وبإعطائهم جميع الحقوق المدنية ، ويستثنى منها مؤقتاً اختيارهم للمناصب وهو ما لم يكونوا بعد مهيئين له .

وأثارت الرسالة التعليق فى أقطار كثيرة ، فاتهمه بعض خصومه بأنه باع قلمه لليهود ، ولكن العديد من رجال الدين البروتستنت سارعوا إلى الدفاع عنه . وأيده المؤرخ السويسرى يوهان فون مولر ، وطالب ترجمة أعمال موسى بن ميمون إلى الألمانية أو الفرنسية . واكتسبت حركة التحرير دفعاً من براءة التسامح الصادرة فى ١٧٨٢ بالنمسا ومن تحرير اليهود السياسى فى الولايات المتحدة (١٧٨٣) . واستجابت الحكومة الفرنسية استجابة هزيلة برفع الضرائب الشخصية (١٧٨٤) التى أثقلت كواهل اليهود . واشترك المركيز ميرابو مع ماليرب فى تحقيق هذا التخفيف ، وساعد الحركة ابنه الكونت ميرابو بمقاله « عن مندلسون والإصلاح السياسى لليهود »

(١٧٨٧) ودفع الأب هنرى جريجوار الحركة بكتابته مقالا نال جائزة فى مسابقة عن «الأحياء المادى والخلقى والسياسى لليهود» (١٧٨٩).

على أن التحرير السياسى النهائى لم يأت إلا مع الثورة. فقد احتواه ضمنا إعلان حقوق الإنسان الذى أذاعته الجمعية الوطنية (٢٧ أغسطس ١٧٨٩)، وفى ٢٧ سبتمبر ١٧٩١ وافقت الجمعية التأسيسية على إعطاء كامل الحقوق المدنية ليهود فرنسا. وجاءت جيوش الثورة أو جيوش نابليون بالحرية ليهود هولنده فى ١٧٩٦، وليهود البندقية فى ١٧٩٧، وما ينز فى ١٧٩٨، وروما فى ١٨١٠، وفرانكفورت فى ١٨١١. وهكذا اختتمت حقبة العصور الوسطى بالنسبة لليهود.

OboeIkandl.com